المبحث الثالث

الدراسة الميدانية في الأنثروبولوجيا وميادينها

«الخطوات العلمية المستخدمة في البحث الأنثروبولوجي»

تُعد الدراسات الحقلية مصدراً هاماً في البحث الأنثروبولوجي، وهناك جملة من الخطوات العلمية المتبعة في هذه الدراسات لأجل تجسيد ما سميناه المنهج العلمي في الأنثروبولوجيا هي:

أ- تحديد موضوعات الدراسة الأنثروبولوجية:

بات من المعلوم أن موضوعات الأنثروبولوجيا تحتاج إلى الدراسة الحقلية القائمة على الوصف والتحليل، وبات من الأمور المسلم بها في ميادين الأنثروبولوجيا أن تجري الدراسة الحقلية على مجتمع محلي صغير يفضَّل أن يكون محدود العدد في وسع الباحث أو فريق البحث المتكامل أن يغطي جميع جوانب الحياة فيه؛ خلال فترة زمنية معقولة، ولو أن هذا الاتجاه العام للاقتصار على مجتمعات محلية محدودة لا يعني أن علم الإنسان (الأنثروبولوجيا) لا يتطرق إلى دراسة مجتمعات حضرية ومجتمعات تقليدية ذات أحجام كبيرة. وعلى هذا فإن هناك جملة من الشروط العلمية المرتبطة بتحديد موضوع الدراسة، نذكر منها:

أ- أن يتحقق الاهتمام العلمي بالموضوع المدروس.

ب- أن تتحقق الرغبة الشخصية بالموضوع المدروس.

جـ- أن تتوافر الإمكانات المادية والمعنوية لدراسة الموضوع.

obeikandl.com

وبهذه المناسبة لابد من الإشارة إلى أن التحديد الدقيق لموضوع الدراسة يسهل على الباحث الإجراءات (الخطوات) العلمية الأخرى.

ب- الإعداد الببليوجرافي:

بعد أن يقع اختيار الباحث على موضوع البحث والمنطقة التي سيقوم ببحثه فيها يتعين عليه إعداد خطة ببليوجرافية سليمة تشمل قراءة كل ما يتصل بموضوع البحث ومنطقة الدراسة ابتداء من البحوث والدراسات العلمية المنهجية التي ربما تكون قد أجريت على هذا المجتمع (موضوع البحث)، حتى التقارير والنشرات والملاحظات العامة التي تعرض لهذا المجتمع وموضوع البحث من أي جانب من الجوانب. وفي هذا الإطار لابد للباحث من الاطلاع على الخطوط الأساسية والاتجاهات العامة للبحث في الموضوع المدروس، فإذا أردنا مثلاً دراسة المعتقدات السحرية في قرية معينة أو مجتمع محلي معين فلابد من تعميق المعرفة العامة بدراسة موضوع السحر في الثقافات كافة وفي المرحلة التاريخية المختلفة والأخذ بقسط كاف من المعلومات الموضوعية المتصلة بهذا الفرع من فروع الثقافة الشعبية.

جـ- كتابة مشروع البحث (الموضوع):

وهنا على الباحث أن يطرح جملة من الأسئلة الأساسية التي يجب عليه أن يجيب عنها، نذكر منها:

ماذا يريد الباحث أن يدرس (وبشكل محدد)؟

كيف ينوي إنجاز هذا البحث؟

ما هي الدراسات السابقة التي تم إنجازها من قبل بالنسبة للموضوع وتلك الدراسات التي أجريت بوجه خاص على المجتمع الذي ينوي دراسة الموضوع فيه؟

ما هي الميزانية التقديرية اللازمة لإنجاز البحث؟ (ميزانية البحث التقديرية)

ما هو البرنامج الزمني (المجال الزماني) للبحث أو الخطة الوطنية التي سيجري الباحث خلالها بحثه؟

ما هي الجهات التي سيتعامل معها لإنجاز البحث؟

وغير ذلك من الأسئلة الدقيقة حتى لو كان الباحث ينجز الدراسة لأغراضه الخاصة وعلى نفقته الخاصة؛ لأن هذه الخطة - كما أشرنا - موجه هام للدراسة الميدانية نفسها.

د- إعداد ميزانية البحث:

يقصد بميزانية البحث: النفقات المقدرة من قبل الباحث لإنجاز البحث، وتختلف من بحث إلى آخر حسب حجم البحث وبعده عن مكان أو جهة العمل، وغير ذلك من القضايا المرتبطة بالبحث والمختلفة من بحث إلى آخر.

ولعل عناصر الميزانية هي:

- نفقات السفر من وإلى منطقة البحث.

- نفقات التنقلات الداخلية في منطقة البحث.

- نفقات الباحثين (أجور وغيرها).

- نفقات الطعام والشراب (نفقات الإقامة).

- نفقات مستلزمات البحث الورقية (قرطاسية وما شابه) وآلات التصوير وأجهزة التسجيل . . إلخ.

- نفقات الهدايا التي يمكن أن يحتاج إليها الباحث حسب ظروف البحث.

ويفضل أن يعد الباحث ميزانية تقديرية بشكلها المثالي المطلوب، وأخرى بشكلها المتقشف الذي يشكل الحد الأدنى الضروري، ويعود ذلك إلى جهات التمويل وإمكانيات هذه الجهات.

هـ- الاستعدادا للبحث:

ويشمل هذا الاستعداد:

١- تأمين الموافقات الإدارية والعلمية المطلوبة من الجهات ذات الاختصاص التي تسمح للباحث وفريق البحث بالعمل الميداني.

٢- إعلام الجهات الشعبية والإدارية بمستوياتها المختلفة في منطقة البحث بإجراء البحث والهدف منه.

obeikandl.com

٣- الاتصال مع الأشخاص المتوقع منهم مساعدة الباحث في التعريف على المجتمع (موضوع البحث)، وتسهيل عملية البحث الميداني.

٤- الاتصال بالجهات العلمية (المعاهد والمؤسسات العلمية) القريبة من (مجتمع البحث) لإمكانية الاستفادة منها.

٥- تحضير مكان الإقامة في (منطقة موضوع البحث) وتحديد الجهات التي سيتعامل معها الباحث؛ لأن التعامل مع فئات غير مرغوب فيها تسهم في إفشال الدراسة.

٦- الإعلام عن مهمة الباحث بصدق وصراحة في مجتمع (موضوع البحث) والإعلام عن الوسائل التي سيستخدمها في البحث، وعلى الباحث أن يتجنب (قدر الإمكان) إعطاء الوعود المرتبطة بتنفيذ تغيرات وإصلاحات في مجتمع (موضوع البحث).

و- اختيار وحدة الدراسة في مجتمع (موضوع البحث):

وهنا يحدد الباحث مجتمع الدراسة الدقيق أو ما يسمى (وحدة الدراسة) التي سيجري عليها البحث ويجمع منها البيانات، وقد يتعرض هذا التحديد أو الاختيار لوحدة الدراسة معارضة السلطات المحلية أو الزعامات المحلية في مجتمع (موضوع الدراسة) - وهنا يجب أن يتسم الباحث باللياقة وإقناع الجهات المعترضة في مبررات تحديد وحدة الدراسة.

ز- عملية جمع البيانات:

تشمل عملية جمع البيانات اعتماد الوسائل التي ستجمع البيانات من خلالها، ولعل الوسائل المستخدمة في الدراسات الأنثروبولوجية هي:

- الملاحظة بالمشاركة.
- المقابلة الشخصية.
- كما تشتمل تحديد مصادر البيانات، ولعل منها:
- المذكرات.
- الصور الفوترغرافية.
- أشرطة التسجيل الصوتية.
- الوثائق المدونة حول الموضوع.

وتشمل أيضاً بعض الآلات المساعدة في عملية جمع البيانات، مثل: آلة التصوير والتسجيل.

١) **الملاحظة بالمشاركة:** وهي أداة لجمع البيانات يستخدمها الأنثروبولوجي عند إجراء الدراسة الأنثروبولوجية، ونعني بالمشاركة: أن يصف ما يشاهد من خلال مشاركته لمجتمع (موضوع الدراسة). فإذا أراد الباحث أن يدرس مجتمعاً محلياً صغيراً (قرية) فعليه العيش في القرية لمدة مناسبة تسمح له أن يتعرف على كل شيء فيها من خلال مشاركته الدائمة خلال هذه الفترة التي يقيمها مع أهل القرية، وهناك جملة من الملاحظات

obeikandl.com

يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار عند استخدام الملاحظة بالمشاركة، لعل منها:

١-١ على الباحث التواجد في أماكن الأنشطة الرئيسة في مجتمع موضوع الدراسة.

١-٢ على الباحث متابعة الجزئيات الصغيرة (الملاحظة الجزئية) لكل شيء في مجتمع موضوع الدراسة (ماذا يجري في الشارع وفي المنزل، وأثناء ممارسة الناس لعملهم وحياتهم اليومية... إلخ).

١-٣ محاولة الاستفادة من الزيارات التي يقوم بها أو يدعى إليها للمنازل بحيث يجعل أهل المنزل يتحدثون عن كل شيء يفيده من تلقاء أنفسهم.

١-٤ يجب ألا ينسى الباحث (عند الملاحظة) متابعة الناس عند خروجهم صباحاً إلى العمل وعند عودتهم مساءً؛ لأنهم يمارسون سلوكاً وعادات تفيده جداً كمعلومات للبحث.

١-٥ مراعاة الملاحظة الدقيقة خلال المناسبات المختلفة (عند الولادة والوفاة والزواج ومواسم الحصاد والختان.. إلخ).

١-٦ عند زيارة الأهالي أو أفراد مجتمع الدراسة للباحث يجب أن يراقب ردود أفعالهم لما يشاهدون من أدوات عمل تخص عملية الملاحظة وموضوع البحث مثل: (آلات التصوير والتسجيل وغير ذلك).

١-٧ على الباحث أن يقوم بتدوين الملاحظات يومياً كي لا ينسى ما هو هام ومفيد لبيانات الدراسة.

obeikandl.com

١-٨ من أهم ما يجب أن يتسم به الباحث الدقة في الملاحظة، وهذه الدقة تتطلب منه المران الكثير والاجتهاد في تدريب الذاكرة على الاحتفاظ أو حفظ المعلومات وتكرار الرجوع إلى الشيء الملاحظ غير مرّه.

١-٩ يجب أن يكون الباحث الملاحظ من أصحاب الثقافة العامة الواسعة؛ لأنها تفيده جداً في القدرة على تحليل ما يشاهد وملاحظة ما يقع بين السطر ووراء الكلمات.

١-١٠ على الباحث اعتماد دليل العمل الميداني الخاص بالملاحظة ليسترشد به في استيفاء النقاط أو العناصر المختلفة المكونة لموضوع الدراسة.

١-١١ على الباحث أن يوضح ما إذا كان قام بالملاحظة بنفسه، وإذا لم يكن هو الذي قام بالملاحظة يجب أن يشير إلى المصدر الذي حصل منه.

١-١٢ على الباحث الابتعاد عن استخدام الأحكام والمفاهيم العامة ويحدد بدقة هذه المفاهيم والأحكام.

١-١٣ يجب على الباحث أن يكون ملمًا بتفاصيل مجتمع موضوع الدراسة من لغة أو لهجة أو عادات أو أسماء أماكن أو تواريخ تستخدم للدلالة على حوادث تاريخية زمنية... إلخ.

٢) **المقابلة**: وهي الحوار الذي يجري بين الباحث والأشخاص الذين هم مصدر معلومات الدراسة والملاحظة، وتتطلب المقابلة هذه حسن الإدراك والتدبير وبراعة الباحث في إجراء الحوار.

وهناك - أيضاً - جملة من القضايا يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار من قبل

الباحث عند إجراء المقابلة، نذكر منها:

٢-١ أن يحافظ على الطابع الرسمي بينه وبين المسؤول قدر الإمكان وفي الحدود المناسبة لظروف المقابلة.

٢-٢ أن تكون لديه القدرة على الحرص والتبصر؛ لما في ذلك من كشف لكثير من القضايا التي لا يصرح بها المسؤول حول شخصيته ووضعه الاجتماعي.

٢-٣ إدراك أهمية وحساسية القضايا الشخصية التي إن لم تؤخذ بعين الاعتبار لعلها تعيق عملية المقابلة بل وتفشلها.

٢-٤ يجب مراعاة الوقت الذي يجري فيه المقابلة، فلا يمكن خلال فترة استراحة المسؤول (مثلاً) أو وهو يعمل أو غير ذلك. كما يجب مراعاة عند إجراء المقابلة في المنزل أن تكون بمكان هادئ وعدم وجود أشخاص آخرين أثناء الحوار؛ لما في ذلك من تأثير سلبي على عملية المقابلة.

٢-٥ يجب أن يكون الباحث يقظاً لمدى صدق المعلومات التي يقدمها المسؤول، وإذا احتاج الأمر إلى ذلك عليه إعادة الحوار في المعلومات غير الصحيحة بلباقة وكياسة المسؤول وإذا لم يتمكن فعليه مقاطعتها مع مسؤول آخر... إلخ وهنا يجب على الباحث أن يسعى للحصول على المعلومات من المتخصصين مباشرة وهذا لا يعني عدم اعتماد رأي الناس العاديين.

٢-٦ يجب على الباحث عدم إدارة المقابلة بمجملها بالأسئلة المباشرة ويجب التزام الحذر عند استخدام هذه الأسئلة؛ لأن توجيه أي سؤال

مباشر بشكل خاطئ أو خارج عن حدود المطلوب سيعود بالضرر على سير المقابلة، وهنا ينصح الباحث باستخدام الأسئلة غير المباشرة قدر الإمكان واستخدام الأساليب المناسبة والذكية عند استخدام الأسئلة المباشرة.

٢-٧ من المفيد أن يبدأ الباحث المقابلة لإطلاق حكم عام أو إبداء ملاحظة عامة حول موضوع معين، ثم يترك للمسؤول فرصة الكلام كما يشاء حول هذا الموضوع.

٢-٨ مراعاة أن تتم المقابلة على فترات وخاصة إذا كانت المقابلة لمدة طويلة؛ كي لا يرهق المسؤول ويعطي المعلومات مختصرة أو منقوصة.

٢-٩ على الباحث مراعاة الفئات الاجتماعية التي يتحدث معها أثناء المقابلة، فلا يحاور الكبار بحضور الصغار والعكس صحيح، ففارق السن يمثل في هذه الأحوال عاملاً شديد التأثير على دقة البيانات، وكذلك الحديث مع الإناث بحضور الذكور والعكس صحيح وبخاصة إذا كانت الموضوعات تتعلق بمسائل شخصية أو محرجة.

مشكلات تواجه عملية جمع البيانات:

عندما يبدأ الباحث بخطوة جمع البيانات فيكون العمل الميداني (الحقلي) قد بدأ فعلياً، وهناك مشكلات تواجه الباحث لابد من أخذها بعين الاعتبار نذكر منها:

١- المبالغة في الضيافة على حساب وقت العمل، فقد يبالغ أبناء مجتمع موضوع الدراسة بحسن الضيافة للباحث في أيامه الأولى، وهذا

يؤثر على وقت العمل وإنجازه بالوقت المبرمج له حسب الخطة الزمنية. وهنا على الباحث أن يدرك هذه المشكلة ويسعى دائماً إلى عدم الوقوع فيها.

٢- عدم قناعة أهالي مجتمع (موضوع الدراسة) بمهمة عمل الباحث والشك فيها (إنه جاسوس أو مخبر.. إلخ) أو يبغي أهدافاً أخرى، وهنا على الباحث أن يزرع الثقة يوماً بعد الآخر عندهم وتصحيح الفكرة الخاطئة المكونة لديهم.

٣- من خلال العلاقات الطيبة التي تتكون مع بعض أهالي المجتمع (موضوع الدراسة) فيقومون بعرض آرائهم وإعطاء البيانات التي يرونها مناسبة، وتحديد الصور التي يجب أن تصور وما يجب أن يسجل وما لا يجب وتحديد من سيقابلهم الباحث ومن يجب ألا يقابلهم وهكذا وهذه مشكلة أيضاً يجب أن يدرك الباحث أخطارها على دقة البيانات وألا يسمح لوجودها مسبقاً.

٤- (أحياناً) تقوم بعض الجهات الإدارية والمسؤولة في المجتمع (موضوع الدراسة) أن تفرض على الباحث الأشخاص الذين يتحدثون معه أثناء المقابلة، وهنا عليه استيعاب ذلك ومحاولة إيجاد أشخاص آخرين من طرفه وخاصة أنه يعيش لمدة مناسبة في المجتمع (موضوع الدراسة).

٥- مشكلة احتمال إنهاء الدراسة والانتقال إلى مجتمع آخر وهي مشكلة ربما تصادف الباحث عند البدء بالعمل الحقلي كأن تحدث وفاة مثلاً في مجتمع (موضوع الدراسة) ويكون (موضوع الدراسة) حول الأغاني

الشعبية أو الاحتفالات الخاصة بالزواج، فمن الصعب وحتى لفترة طويلة أن يقوم الباحث بإنجاز عمله لأن مجتمع البحث لا يتقبل بل يرفض العمل، وهنا يلجأ الباحث إلى تغيير المجتمع إلى آخر قريب إذا تسنى له ذلك وحتى لا تذهب الجهود الكبيرة التي بذلها في الإعداد للبحث هباء.

جـ- كتابة التقرير (الوصف والتحليل ونتائج الدراسة):

تُعد عملية كتابة التقرير العلمي الخطوة الأخيرة في العملية المنهجية للدراسة الأنثروبولوجية. فبعد أن يجمع الباحث بياناته بوسائله المختلفة، وبعد عودته من المجتمع (موضوع البحث المدروس) يقوم بكتابة تقرير عما جرى معه منذ بداية عمله وحتى النهاية بما في ذلك المشكلات التي واجهته والإرشادات والتوصيات التي يقترحها، ويجب أن يكتب التقرير بلغة علمية وبتبويب وتصنيف ممنهج، وهنا ينصح الباحث أن يطرح على نفسه السؤال التالي وهو:

- ماذا يريد القارئ أن يعلم عن الموضوع المدروس، وكيف سأعرض عليه الحقائق والنتائج التي انتهى إليها البحث؟

كما على الباحث ألا ينسى استخدام الشواهد في بحثه وخاصة إذا استخدم آلة التصوير مثلاً، ويشير في نهاية التقرير إلى الجهات التي تعاون معها، والمصادر العلمية التي اعتمد عليها ولا شك أن إنجاز التقرير العلمي يعتمد على استخدام الوصف والتحليل والمقارنات والأدلة للوصول إلى النتائج التي بدورها تسهم في اعتماد اقتراحات وتوصيات حول الموضوع المدروس.